

لا نسبية في الورع

"كل شيء قابل للتسامح، إلا نوازع التملك وشهوة التسلّط"

برتراند راسل

يذكرنا كتاب نقولا ناصيف عن جمهورية فؤاد شهاب بقيمتين اخلاقيتين تعبّران عن مدى صلابة الروح الانسانية عند الرجل: الاولى، انه عندما كلف رئاسة الحكومة الموقّنة زمن بشارة الخوري، لم يبق في الموقع سوى ستة ايام، استعجلها على نحو يفوق طاقات جميع المعنيين. الثانية، والاهم، انه عندما أعاد السلطة الى القانون، والجمهورية الى البرلمان، والدستور الى الشعب، كان العالم العربي يعيش في هجمة العسكريين على المؤسسات والبرلمانيين وصانعي الاستقلال.

ففي تلك المرحلة كان الاميركيون يندفعون للحلول محل النفوذ الاوروبي، وللوقوف في وجه الحركات الشعبية والوطنية، والحوّل دون عودة الوحدات الطبيعية، ولذلك اختصروا طرق السيطرة عبر الثكن من اميركا اللاتينية الى المشرق العربي، بعدما اصبحت اليابان وكوريا والمانيا تحت الاحتلال العسكري المباشر. وبدل ان يستغل فؤاد شهاب حال التهافت العام، وموجة الانقراض على العائلات الاستقلالية والسياسية واصحاب المدارس الوطنية والديموقراطية في إمداء العالم العربي، اختار ان يبقى لبنان، كما أنشئ، حديقة فيها الكثير من الاخطاء، والكثير من التغريد، ولكن بلا أسلاك ولا أسوار.

طبعاً كانت القيمة الاخلاقية الاولى في شخص فؤاد شهاب نفسه. فعندما تحدث عن "أكلة الجبنة"، انما تحدث من موقع العفيف الكلي النزاهة، لا مسّ مالا في الحقيقة، ولا حتى في الاشاعة. لا بإسم الجيش، ولا بإسم الدولة، ولا بإسم الناس. فمن اجل ان يعمل لقيمه، كان يجب ان ينقل صورته في الجيش الى صورته في السياسة: العسكري حمى الجيش من كل اغراء او فحش سياسي او مالي، والسياسي بدأ وضع الاسس لاقامة الدولة. جميعها نسيناها الآن. لم تبق الدولة سوى على الخريطة وفي القواميس التي لم تعد النظر بعد في لائحة الدول المستقلة.

الى متى سنظل نكتب عن الموتى؟

الى ان يستيقظ الاحياء. وقد اسمعت لو ناديت حيّاً!

أمضى فؤاد شهاب ستة ايام رئيساً لحكومة موقّنة، كان عضواها من خيرة المدنيين ومشهودية العمل المدني والرقى السياسي التآلفي الوحدوي. وقد تمسك بالقانون كما تمسك بمعطفه. وكان طوال ستة ايام يذكر اللبنانيين بأنه مجرد مكلف بسيط قراءة "الكتاب" ولن يتجاوز فاصلة فيه. فهو قائد الجيش لحماية لبنان واللبنانيين، وليس قائد فرقة تقاثل بعض الجيش واكثرية اللبنانيين وتساهم في تفكيك الدولة وشرذمة البشر، من منطقة الى منطقة، بحيث لا يعود احد يعرف ما هي وجهة المدفع الأميري.

أفسدنا فؤاد شهاب. وضع أمامنا نموذجاً صعباً. وأقام مقتدى صلباً في بلد تستسهل فيه الناس التحوّل، وتتغير فيه الرايات مثل غابات الامازون. وحتى عندما فتحت اول كوة في حدود اسرائيل تدفقت الناس عبر "الجدار الطيب" من اجل العلاج، وشراء اكياس البرتقال لأنها ارخص من اسواق صيدا.

كان يعرف فؤاد شهاب الى اي نوع من المواطن ادى غياب الدولة الابدي. لذلك اراد ان يقيم سياجاً داخلياً نفسياً يحميه من ذل الخوف. واراد ان يبني له دولة تعطيه حقوقه من دون منة الوسيط الفاجر، المستبد. وأراد ان يطمئن الى غده هنا، في ارضه، لا ان يجلس على الموائى لكي يحلم بأي ميناء آخر في انحاء الارض.

بدأ مسيرته، فؤاد شهاب، في الهرمل. وفي الجنوب. وقيل له ان في احد المصارف 75 موظفاً بينهم مسلم واحد، فطلب صاحب المصرف وقال له: معك يوم واحد. أما ان تكون بشرياً، وأما ان تغلق هذه الملحمة. لا يستطيع ان يكون الحاكم فريقاً، وشريكاً، ومضارباً، وموزع الاغنام والانعام على عائلته وازلامه وانسابه واحسابه. النزاهة ليست مسألة نسبية، ليست مقايضة، لا يمكن استقراض الفضائل على أمل الدفع في ما بعد. يقول المثل الانكليزي، كل مال العالم لا يستطيع ان يشتري لك ماضياً. حتى هنا، حتى في هذا البلد الذي اريد فيه لقريب "أمانة سر" بنك المدينة ان يصبح زعيماً سياسياً على بيروت. وربما لاحقاً على لبنان. وللمناسبة دامت الافراح في دياركم عامرة. فقد كان عرس امانة السر في البرازيل مقتصراً على الاهل والاصدقاء. ورش على موكب العروسين السعيدين، مواطنتنا والمواطن البرازيلي، ملايين "السنتافو" بدل أرزٍ أنكل بنز. والسنتافو، قبل ان تُخدعوا، واحد على مئة من عملات البرازيل وامها البرتغال والاكوادور وعشرة بلدان لاتينية اخرى. ولا ادري لماذا، عادة قديمة. وحليمة حليلة.

ايضاً للمناسبة فقط، واعتذر عن الاستطراد، فقد حضرت مرة نقاشاً تلفزيونياً بين صحافي وعميد الكتلة الوطنية كارلوس اده، الذي كما نعرف جميعاً يصعب عليه التعبير بالعربية. وعندما طال تعثره، قال له الصحافي ساخراً: "قلها بالبرازيلية". وقد استحال عليه ذلك، لانه ليست هناك لغة برازيلية. بل هناك لغة برتغالية استعمر اهله بلاد البرازيل منذ القرن السادس عشر بقيادة الساذج الآخر فردينان ماجلان الذي ظنّ انه متجاوز افريقيا فإذا به في ما اصبح اليوم الديو.

هل عروستنا هناك، ام في سان باولو؟

الغبي الاول كان كريستوف كولومبوس. حمل خريطة من أيام بطليموس وأبحر بها الى الهند، فإذا به في هايتي، ثم اميركا اليوم.

أليس الأهم الانسان، وليس ماذا يقول؟

لقد كان ديموستينس متعثراً مثل كارلوس اده الذي كان يتحدث عن مواقف عائلته الوطنية منذ قرن. طبعاً لو قالها بالبرازيلية لكان اكثر فصاحة. ولكن يجب ألا ننسى ابدأ أننا من بلد عيّن النائب الياس السكاف في "لجنة الصياغة" للبيان الوزاري. على الاقل يتحدث كارلوس اده البرازيلية ليعلن انتماءه الى لبنان.

ثمة من يتحدث العربية، او "اللغا اللبناني"، ليعلن انتماءه الى كل بلد عدا لبنان. ليست مسألة لغة.

هل هي مناسبة توقيع كتاب فؤاد شهاب؟ لا ادري. لكننا منذ زمن لم نر صورة للجنرال غابي لحدود في بيروت. وكانت المفاجأة مزدوجة، اولاً عرفنا بقدمه من لائحة زوار بكركي، وثانياً عرفنا من خلال ذلك انه لا يزال هناك من يجرؤ على زيارة بكركي الذين كانت بينهم ارملة الجنرال فرنسوا الحاج. هل تذكرون فرنسوا الحاج، أم لا تزالون في انتظار "نتائج التحقيق"؟

من اجل من يُقتل الناس في لبنان؟ ماذا يحدث اكثر من ان تترمل الصبايا ويتيمم الاطفال؟ آه، بلى، هناك شيء آخر وقد مرت بنا ذكرى شباب بيار الجميل. يحدث ان تصعد الارامل والثكالى الى بكركي بثياب الحداد، فيحتاج البطيريك للمنظر على مشارف التسعين وتحت قدمي سيدة حريصا. هذا قيل في لبنان، الذي ما أعطي مجدداً إلا وأخذ منه، وما أعطي ابناً إلا وهاجر، وما أعطي فؤاد شهاب إلا وأدارت سيدة حريصا وجهها ناحية المؤمنين النظفاء الذين ما أبقوا حجراً على حجر.

سمير عطاالله

التحرير - الاربعاء ٢٤ ٢٠٠٨